مجلة جامعة صبراتة العلمية
Sabratha University Scientific Journal

مجلة علمية نصف سنوية محكمة متخصصة في العلوم الإنسانية
تصدرها جامعة صبراتة بشكل إلكتروني

مؤشرات اغترابية لدى المجتمع الموريتاني

Indicators of alienation in Mauritanian society

د.محمد بن جدو، أستاذ محاضر بقسم التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط– موريتانيا

Dr. Mohamed Ould Jiddou University Lecturer at the Faculty of Letters and Human Sciences of the University of Nouakchott/Mauritania

رقم الإيداع القانوني بدار الكتب الوطنية:
2017-139

الترقيم الدولي:
ISSN (print) 2522 - 6460
ISSN (Online) 2707 - 6555

الموقع الإلكتروني للمجلة:
https://jhs.sabu.edu.ly

مؤشرات اغترابية لدى المجتمع الموريتاني

Indicators of alienation in Mauritanian society

د.محمد بن جدو

ملخص الموضوع

تتبني إشكالية هذا المقال حول فرضية مؤداها أن هناكمجموعة أعراض لاغتراب مجتمع الدراسة (المجتمع الموريتاني). حيث تبين لنا من خلال تقصينا لأبعاد الفرضية المدروسة أن ظاهرة الاغتراب تخترق مجمل أوجه حياة هذا المجتمع.

و لتسهيل فهم الظاهرة المدروسة تم وضعها في سباقها، حيث عرفنا في البداية بمجتمع الدراسة. أما الجزء الثاني من البحث فقد تقصينا من خلاله تجليات و أسباب و أبعاد الظاهرة المدروسة، حيث قدمت توصيفا يرصد ما بدا لنا أنه علامات اغتراب لدى مجتمع الدراسة.

و قد توصلنا في هذا السياق إلى أن لهذا الظاهرة عدة أسباب وراثية يرتبط بعضها بالمحيط الجغرافي للمجتمع المعني، بينما يعود جزء منها إلى طبيعة مساره التاريخي وثقافته الصوفية. هذا إلى جانبما تسببت فيه إدارة أنظمته السلطويةمن حرمان للناس هنا من متع الحياة. و قد خلاصنا من خلال هده المقاربة إلى لازمية تعقل هذا المجتمع لذاته، انطلاقا من مستجدات المعرفة و سياقات محيطه الدولي، كشرط للخروج من وضعية ألا وعي الذي يعيشه.

الكلمات المفاتيح: المجتمع الموريتاني – الاغتراب – الاغتراب الفكري - اغتراب اجتماعي- حلول

ABSTRACT

The problem of this article is based on the hypothesis that there is a set of symptoms of alienation in the population studied (Mauritanian society).

Through our investigation of the dimensions of the hypothesis submitted to study, it became clear to us that the phenomenon of alienation is inflicted in all aspects of the life of this society.

To facilitate understanding of the phenomenon studied, we put it in context, because in the preamble we presented it to the population studied. As for the second part of the research, we studied the manifestations, causes and dimensions of the phenomenon studied, thus trying to provide a complete description of what seems to us to be signs of alienation within the population studied.

In this context, we concluded that this phenomenon has several genetic causes, some of which are linked to its geographical environment, while another part is due to the nature of its historical course and the soffit culture. A This adds to the deprivation of people here from the pleasures of life caused by the administration of its authoritarian regimes. Through this approach, we conclude that it is necessary for this society to rationalize itself, according to the evolution of knowledge and the contexts of its international environment, as a condition for emerging from the state of unconsciousness in which it lives. .

Key words: Mauritanian society – alienation – intellectual alienation – social alienation.

تقديم يحدد إشكاليات الموضوع

تتحدد أهداف هذا النص في محاولة اختبار عدة فرضيات تتركز حول ما بدا أنه مجموعة أعراض لاغتراب مجتمع الدراسة (المجتمع الموريتاني). بعبارة أخرى نشير إلى أن الأمر هنا يتعلق ببحث نريد له أن يكون مقدمة لتحليل ما لاحظناه من

نزوع لهذا المجتمع نحو التنكر لواقعه. حيث تبين في ضوء قراءتنا، و ملاحظنا أن هذا الأخير قد اعتمد في تصوره و تصرفاته على الكثير من الانطباعات و الإفهامات التي تتجاهل أو تعجز عن إدراك واقعه الوجودي.

و من باب التقليد المنهجيسنتخذ من تحديد مفاهيم العنوان عتبة تسهل فهم و معرفة إشكالاته و قضاياه الرئيسية.تلك الخطوة التي نراها مسألة ضرورية لمعالجة أمور تحيطها العديد من الالتباسات. على سبيل المثال نشير إلى أن الاستخدام المجازي و العشوائي لمفهوم الاغتراب قد جعل من الأخير مفردة تحيل إلى المتاهة أكثر مما تفضي إليه من التوضيح. و بنفس القدر من الغموض نرى أن هوية مجتمع الدراسة(الموريتاني) ما تزال مظلمة إن لم تكن معتمة. إجمالا نرى أن مقتضيات تبديد عوائقفهمالموضوع، و إرساء بناه تتطلب منا اعتماد الترتيب التسلسلي التالي:

أولا : التعريف بعناصر الموضوع

1- الاغتراب من حيث المفهوم

يعد الاغتراب أحد المفاهيم التي تداولتها بالدراسة العديد من العلوم الإنسانية. وتعددت بذلك المعاني المعطاة لهذه المفردة بتعدد كبار المفكرين الذين جعلوا من هذا المصطلح أداة لنعت العديد من الظواهر المرضية التي اتسمت بها التجربة البشرية.

واجتنابا للإطناب و إثقال النص بما لا تستدعيه الضرورة سنحاول الاقتصار على تحديد الدلالة القصدية لدينا من استعمال هذا المفهوم، متوسلين من وراء ذلك إجراء التحديد الموضوعي للظاهرة و أن نجتنب – في نفس الوقت – المنزلقات والانزياحات المتعددة لدلالة المصطلح الواحد، والتي تختلف باختلاف الاختصاصات والتصورات.

أما المقصود لدينا، هنا، بالاغتراب، فهو (وجود علاقة انفصالية بين الواقع والحلم/ المتخيل لدى الإنسان[1]). بتعبير أخرالاغتراب هو اغتراب الإنسان عن ذاته، ووضعه الوجودي بحكم سيطرة اللاوعي على الوعي. هذا ما نصت عليه دراسة العالم إبراهيم حركاتمن خلال القول بأن الاغتراب هو:(الطاهرة المرضية التي يلجأ إليهاالإنسان المعذب في صلب عالمه الداخلي إلىالأوهام.. و مخادعة الذات، إما تقليلا لأهمية كل ماله قيمة حقيقية، أو تجنبا للواقع ..)[2].

تشكل الفقرات الأخيرةإحدى الدلالات المركزية لمفهوم الاغتراب. كما أنها تجسد في نفس الوقت المعطى القاعدي الذي يمكن على ضوئه أن نختبر البناء الفرضي لهذا المقال المتعلق بمجتمع ينبغي أن نعرف به.

2- التعريف بمجتمع الدراسة

أ - المجال الجغرافي

تشكل موريتانيا إحدىالأطراف القصية من غرب الوطن العربي. ففي هذا الركن من العالم يتموقع مجال مجتمع الدراسة بحدوده السياسية الدولية الحالية. و رغم ما لمنتهى هذه الحدود من وضوح راهنإلا أن أصوله ما تزال مطبوعة بالغموض فإلى حدود بداية القرن العشرين لم تكن هناك معالم واضحة الأطراف هذا المجال. و هي وضعية متقاربة مع حالة المحيط العربي الإسلامي آنذاك. حيث يشترك المجال الموريتاني مع غالبية العالم العربي في افتقاد حدود سياسية قبل القرن العشرين. ذلك أن أصحاب الاختصاص يدركون أن الظاهرة الكولونيالية الحديثة هي التي رسمت للعالم العربي حدوده السياسية/ القطرية. غير أن للمجال المدروس هنا وضعا خاصا و استثنائيا داخل محيطه حيث طبع هذا المجال بمختلف أوجه الفوضى وهو الأمر الناتج عن انعدام أي سلطة مركزية بهذا البلد خلال مرحلة ما قبل الاحتلال الفرنسي[3].

وبما أن المقام هنا يضيق عن الاسترسال في الكثير من التفاصيل فسنكتفي بالإشارةإلىأن المجال الموريتاني يتصل شماله، حاليا، بجنوب المغرب والجزائر، فيما تحده من الشرق والجنوب جمهورية مالي، ويطل بجنوبه الغربي على نهر السنغال، بينما تنتهي واجهته الغربية بالساحل الأطلسي[4].

ومماهو جدير بالذكر، هنا، أن الأراضي الموريتانية تدخل ضمن نطاق الصحراء الكبرى. وبحكم كونه خاضعا للمؤثرات القارية، نجد أن المجال المذكور يصنف ضمن مناطق المناخات العالية الحرارة، حيث يسود زفير الصحراء المعروف برياح السموم. من السمات الأساسيةوالسلبية الثابتة لهذا المجال، أيضا، قلة السحب المتلازمة مع تواصل القحط بإيقاعاته الرتيبة، خلال أغلب فصول السنة. ومن نتائج وتجليات ذلك ظهور المجال الموريتاني، خلال أغلب فصول السنة، في

---

[1] - فريحيه بسام ، دراسات في الرواية الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982، ص 34.

[2]- حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية: متاهات الإنسان بين الحلم والواقع ، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006،

[3]- تمكن العودة في هذا الشأن إلى مؤلف: أحمد محفوظ مناه، ميراث السيبة، دراسة في تاريخ الثقافة السياسية ببلاد شنقيط، المطبعة الوطنية، نواكشوط،1992.

[4]- بشير محمد الولاتي، جغرافية موريتانيا، المطبعة الوطنية،نواكشوط، 1993 ص9.

صورة أرض جرداء من الغطاء النباتي. وتلك ظاهرة عادة ما تكون مصحوبة بحركة الرمال والأتربة والغبار..[5]. ثمة طبعا المنطقة المناخية الساحلية التي تشكل الحيز الاستثنائي، من حيث انخفاض درجة الحرارة خلال أغلب فصول السنة.
داخل هذا النطاق الجغرافي المتميز بقساوة المناخ ورتابته تبدو ملامح الإنسان الموريتاني بصفات إنتربولوجية يتمايز بعضها عن الآخر. وإلى جانب تلك الملامح التي غدت معهودة نجد أنه ما يزال هناك ماهو خفي و مجهول في حياة الإنسان هنا.

ب- موريتانيا من السيبة[6]إلى الاحتلال

سنحاول من خلال بعض الفقرات رسم الملامح الرئيسيةالمجتمع الموريتاني. في سبيل ذالك نشير إلى أن هذا الأخير يتشكل أثنيا من مكونين رئيسيين هما الزنوج والبربر هذا إلىجانب العنصر العربي[7]. يضاف إلى ذلك العنصر الناتج عن اختلاط المكونين العرقييناالرئيسيين لهذا المجتمع.
وتخبرنا بعض مصادر العصر الوسيط أن الإنسان هنا قد تأثر بالدين الإسلامي فور وصول الفتوحات الإسلاميةإلى المغرب الأقصى[8]. وهو أمر طبيعي نظرا للاتصال الجغرافي بين المنطقتين. ومع مرور الزمن دخلت جميع مكونات القبائل هنا في الدين الإسلامي مكيفة إياه مع طبيعتها الخاصة.
على المستوى الاجتماعي والسياسي نجد أن القبيلة كانت وما تزال تشكل الثابت والمتحكم ألرئيسيي في عقل وعلاقات أفراد هذا البلد.
لهذا المجتمع أيضا ثقافته التي تشكلت عبر مسار تطوري. ومما هو مؤكد أن الملامح الرئيسية لهذه الثقافة لم تتشكل إلا مع بداية الفترة الحديثة. وهو التوقيت الذي يحيل إلى فترة استقبال المنطقة هنا لبعض القبائلالقادمة من جنوب المغرب الأقصى[9].ومما هو معلوم في هدا السياق أن جل قبائل المغرب قد جرى تعريبهاوإخضاعها لتبعية المجموعات القبلية العربية التي فتحت المغربمن بني هاشم و أمويين وعباسين..حيث تقاسمت هده الأخيرة ولاء القبائل البربرية بالمغرب..ومع مرور الزمن تحولتتبعية الولاء إلى ادعاء الانتساب للمجوعات التي كان يدين لها الأسلاف بالولاء.
وبنفس المنطق والآليات التي تم بها تعريب المجموعات القبلية القادمة حديثا من المغرب الأقصى وعلى مجاله، جرى تعريب المجموعات الصنهاجية التي استوطنت المجال الموريتاني منذ أزمنة قديمة على يد تلك العشائر التي دخلته من جهة الشمال قادمة من جنوب المغرب مع بداية الفترة الحديثة.حيث مكن التفوق النفسي والثقافي والتقني..المجموعات المهاجرة حديثا إلى هدا المجال منغلبة معظمسكانه الأصليين' وتعريب أبرز أوجه الحياة هنا، بما في ذلك شجرة نسب القبيلة هنا. وطمست، بذلك، أسماء الأفراد والمجموعات الامازيغية/ البربرية، تحت مشاعر ومفردات.. عربية.
على مستوى المرحلة المعاصرة نجد أن هذا البلد قد خضع- ابتداء من سنة 1902 حتى سنة 1960- للسيطرة الفرنسية[10].
وقد خرجت سلطة الاحتلال الفرنسي من هذا البلد دون أن تخلف فيه بنية تحتية تستحق الذكر. وهو أمر يعود إلىأن الفرنسيين لم يتخذوا منهمجالا للاستقرار البشري نتيجة لأسباب بيئية.

ج –**منعرجالاستقلال:**

بدت موريتانيا، مع نهاية خمسينيات القرن العشرين، كما لو أنها أضعف مرشح لفك ارتباطه المباشر مع فرنسا، وذلك لعدة أسباب من بينها ضعف الوعي التحرري هنا. إلى جانبالخشية على ذلك المرشح من أن يتمابتلاعه من قبل محيطه

---

[5]- المرجع السابق ص 10.

[6]- تحيل تسمية السيبة في المغرب الأقصى و بلاد شنقيط/ موريتانياإلى المجال الذي ينعدم فيه النظام نتيجة لافتقاده، أو خروجه عننظام السلطة السياسية المركزية، ويسوده الاضطراب والفوضى. وبالفعل فإن هناك إجماعا بين الموثقين لأحوالموريتانيا على أن هذه الأخيرةكانت مجالا تتصارع فيه العديد من القبائل على ما هومتاح من مصادر للحياة البشرية (الثروة الحيوانية ...)، و تتكثف فيه غارات النهب. و قد استمر الأمر على هذا النحو حتى خضوع البلاد للاحتلال الفرنسي مع بداية القرن العشرين.

[7] - الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1987، ص28.

[8]- نفسه، ص: 30.

[9]- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد صبحي ومحمد الأخضر، الرباط، 1983، ج 2، ص54.

[10] -Gnokane Adama , la politique française sur la rive droite du sénégalo ; le pays Maure (1817 – 1903) Thèse du troisième cycle ; Sorbonne 1987 ; P 260

الخارجي[11]. ومع ذلك فقد تقرر حفظ خصوصية هذا الكيانوأنشأ للقوم عاصمة ودستور، وأعلن استقلال البلاد سنة 1960م، بقيادة المحامي المختار ولد داداه.
ومع حلول سنة 1979م، تم وضع حد للحكم المدني[12]بهذا البلد ليتعاقب بعد ذلك على حكمه سلسلة حكام عسكريينتتكر المتأخرون منهم في الزي المدني.
ومما يجمع عليه الخبراء وقادة الرأي هنا هو أنإدارة العسكر لهذا البلد قد حرمت مواطنيه من التمتع بعائدات ثروات بلدهم الوفيرة.هذا التوصيف يجد إثباتاته من المتاعب التي ترسمها مختلف ملامح الحياة هنا. كما سيبدو أن تلك الأزمات قد طالت وعي الناس هنا.

ثانيا: نماذج من تجليات الاغتراب لدى المجتمع الموريتاني

كما هو مبين في مقدمة هذا النص فان هذا الأخير يبحث فيما بدا أنه مجموعة أعراض اغتراب لدى مجتمع الدراسة (المجتمع الموريتاني).

و قد تبين لنا في هدا السياق أن الأمر هنا يتعلق بإحدى عناصر الطبيعة الجوهرية للإنسان الموريتاني. لهذا سيتجلي أن رصدنا، هنا، يدور حول ظاهرة تتعدد مظاهرها و أسبابها..الأمر الذي يعني استحالة الإحاطة بمعالجتها هنا. لكنني اخترت البدء في إثارة بعض جوانب هذه الظاهرة، مستهدف بذلك مواصلة نهجي في الكتابة التي تعمل على تبصير الإنسان الموريتاني بواقعه.

من البديهي القول باستحالة الإحاطة بمختلف إشكالات الموضوع المعالج هنا، نظرا لمخالطة الظاهرة المدروسة لمختلف تجليات الواقع الوجودي للإنسان الموريتاني. و عليه سنكتفي في هذا المقام باستعراض بعض مظاهر اغتراب الإنسان الموريتاني في الماضي القريب و أخرى تلازمه في الوقت الراهن. و قد انطلقنا، في هذا الاتجاه، من محاولة رصد بعض أوجه الاغتراب التي سادت علاقة المجتمع المدروس بمجاله الجغرافي، هذا إلى جانب تلمسنا لبعض صور اغترابه على المستوى الديني و الثقافي و السياسي.

1–اغتراب على الصعيد الجغرافي

انطلاقا من تتبع بعض المعطيات التراثية سنحاول هنا تقصي طبيعة تصور الإنسان الموريتاني لمجاله ودرجة ارتباطه به. وسيتبين، هنا، أن ثمة أدلة ومؤشرات على غياب إحساس القوم بالانتماء إلى مجالهمالجغرافي. ويمكن أن نرصد هذا الاغتراب من خلال دلالات غياب حديث أسلاف هذا المجتمع[13] عن طبيعة أو ماهية مجالهم الجغرافي: جفافه، حدوده.. ومع ذلك نجد بعض المقاطع الموجزة والإشارات البيانية لبعض الفقهاء والشعراء..الشناقطة/الموريتانيين عن مجالهم. وسيتبين أن تلك الإشارات تحمل من دلالات الاغتراب أكثر مما يحمله صمت مصادر القوم عن الموضوع.

---

[11]-يتطلب السياق هنا تنبيه القارئ ،غير الملم بماضي هذا البلد، أن المغرب قد بادر فور استقلاله عن فرنسا و إسبانيا سنة 1956، إلى المطالبة بضم الأراضي الموريتانية إلى مجاله معتمدا في ذلك على عدة أمور من بينها أن بعض الزعامات القبلية بهذا البلد قد سبق لهاأن أعلنت بيعتها لبعض سلاطين المغرب. ولم يكتف المغرب حينها بالمطالبة و أنما دفع بقوة مسلحة تحت اسم: جيش التحرير إلى الشمال الموريتاني الواقع إلى الجنوب منه. و بالفعل فقد تم استهداف مدينة أطار التي تتمركز فيها القوة الفرنسية بالبلد، من قبل تلك القوة المغربية سنة 1958م. وقد واجهت فرنسا تلك الدعاوي والمساعي بالرفض معتبرة أن لمظاهر المجال الطبيعي و أنماط الحياة الاجتماعية و الثقافية...الموريتانية ما يميزها عن الغير، لهذا ينبغي حمايتها. ولكي يتم وضع حد للتحرك العسكري المغربي الهادف إلى ضم موريتانيا إليه ، شكلت فرنسا و إسبانيا قوة عسكرية مشتركة. و بالفعل تمكنت هذه الأخيرة منإبادةغالبية القوة المغربية التي هاجمت مدينة أطار سنة 1958. و قد سبق أن أصلنا القول و فصلناه عن هذا الموضوع في أطروحتنا لنيل شهادة الدراسات المعمقة المعنونة ب: المقاومة الشنقيطية والمغرب أية علاقة؟ بجامعة سيدي محمد بن عبد الله/ فاس، المغرب،2005م

[12]- نفس المرجع و الصفحة.

[13]- راجعنا في هذا الشأن حوليات كل من مدينة شنقيط و ولاته و تجكجه... و ننبه غير المختص هنا أن الحوليات المعنية هي كراسات تتضمن تدوينا لأحداث التاريخ المحلي قام به أمة مساجد تلك المدن(القرى) التاريخية.و من المعلوم لدى المختصين في هذا ألشأن أن بلاد شنقيط (موريتانيا) قد شهدت خلال كل من القرن 16 و 17 و18 و19 م، نشوء بعض المدن(القرى) التي نشأت حول طرق القوافل التي ربطت، خلال الفترة الوسيطة و الحديثة، بين شمال إفريقيا وغربها.وقد شكلت تلك المدن رحما لميلاد نخبة مشبعة بالثقافة الإسلامية و العربية.

ولكي يتضح ما نحن بصدده، سنشير إلى أن مظاهر الاغتراب عن المجال تتخذ عدة تجليات يتمثل بعضها في تعلق القوم بمواشيهم أكثر من تعلقهم بفضائهم المكاني. حيث يقول، على سبيل المثال، مولود أحمد اجويد اليعقوبي:

انظر إلى سير تلك العيس بالظعن: سقيا ورعيا لتلك العيس من ظعن[14].

كما تتجلى هذه الظاهرة أيضا من خلال تعلق القوم بالمزن/ السماء أكثر من تعلقهم بالأرض.

وفي هذا السياق يقول احد شعراء البلد:

لله منـهـا طـالـعـات نـجـوم هيجن شوقي وانتثلنَ همومي[15]

هناك، أيضا، ظاهرة أخرى تتجلى في ارتباط الإنسان هنا بصحراء شبه الجزيرة العربية أكثر من ارتباطه بالحيز المكاني الذي يقيم به فيزيائيا، حيث تتواتر مطالع القصيد لشعراء البلد بالحنين إلى تلك البقاع حيث، يذكر، مثلا ، غالي مختار فال البصاديمايلي :

بـطـيـبـة إطلال عـفـون دوارسُ تـعـاقـبـهـا بـيض وسود حنـادِسُ[16]

ومما يعزز هذا الانطباع عن القوم وجود العديد من المقاطع اللفظية التي تقر بدونية الوطن مقابل التعلقبعض الأشخاص. فعلى سبيل المثال ندين لسيدي ابن المختار ببعض الاعترافات التي يقول فيها :

وشوقي إلى الأوطان شوق مشوشووجدى على الأحباب وجدٌ مبَرّح[17]

داخل هذه البني الاغترابية تتجلى، أيضا، صور تقمص الموريتانيلشخصية إنسان الجزيرة العربية (الجاهلي) واستنساخ شعره ونمطه الحياتي. ولنا أن نستشهد على ذلكبمقطع شعري لأحد أبناء هدا البلد يقول فيه مايلي :

وشوهاء تمضي حيث شاءت مذالة : وعذراء في خدر تصان و تستر

وإني لحسان الطريق وأهلها : أذود أبا جهل النكير و أزجر[18]

ثمة شواهدأخرى تدل على طبيعة العلاقة الاغترابية بين الإنسان هنا و مجاله. يتعلق الآمر هنا بضعف، أو غياب إعمار المنطقة. بعبارة أخرى نشير إلى أن اقتصاد الصحراء هناقد تمثل في الثروة المنقولة (الماشية، الذهب، الحلي..)، بدل الثروة العقارية كالمباني المعمارية، والزراعة، والصيد والمناجم ..

ولكي تكونإحكامنا، هنا، تحمل معها أدلتها، سنستشهدببعض التوصيفات المقدمة من قبل بعض رموز هذا المجتمع خلال القرن 19 م، حيث يذكر أحدهم مايلي: (أن هذه الأرض من يوم فتح أبوبكر بن عامر اللمتوني.. حتى صارت الغلبة..لبني حسان.. وأكثر أحوالها التعلق بالماشية..فالغني غني لا بالزراعة والفقير فقير بالماشية)[19].

إجمالا نشير إلى أن انفصام العلاقة بين المجتمع الموريتاني ومجاله الجغرافي تعود إلى مراحل النشوء هنا. وهو أمر يمكن ربطه بعدة عوامل من بينها أن الأمر هنا يتعلق بمجتمع بدوي يترحل بين مناكب بيئية صحراوية ضنينة، بحثا عن الماء والمرعى اللذين يتركز عليهما اقتصاد الناس هنا حتى وقت قريب.

لا نستبعد، في هذا السياق، أيضا أن تكون رحلات الحج و التعلق بها قد شكلتهيالأخرى إحدىأسباب وتجليات اغتراب مجتمع الدراسة[20]. هذا إلى جانب أن هذا المسرح الجغرافي، يعد مجالا مفتوحا للانتجاع : جنوبا، نحو ما يعرف اليوم بمالي والسنغال، وشمالا باتجاه مدينة تيندوف وواد الساقية الحمراء...

وقد تجلى لنا ذلك من خلال عدة أمور نذكر منها، ضعف المقاومة التي واجهت الاحتلال الفرنسي بهذا المجال. ذلك أن اغترابالقبيلة الموريتانية هنا جعلها جاهزة ماديا ونفسيالإخلاء المناطق التي تقع على خطوط التغلغل الكولونيالي بالبلاد، واستبدالها بمناطقأخرى تعتقد أنها بمنء عن هذا الغازي.

2- خرافات في الأنساب

يحلوللموريتانيين التشبث برواياتهم التي تقول بأن أصولهم عربية. ومما يثير الانتباه، هنا، أنه قل أن تجد في هذه البلاد قبيلةإلا ولها مزاعم تدعي بموجبها أصلا عربيا ما. ويمكن أن نحيل، هنا، إلى نماذج من النصوص التي تدون هذه الرواياتعلى سبيل المثال نذكر كل من:

---

[14] - محمد المختار ولد اباه،الشعر و الشعراء في موريتانيا، دار الأمان، الرباط، الطبعة الثانية،2003، ص96.

[15]- يحيى ولد البراء، المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام أهل غرب وجنوب غرب الصحراء، مؤسسة مولاي الحسن ولد المختار الحسن، الطبعة الأولى ، 2000، ص 119.

[16]- محمد المختار ولد اباه، الشعر والشعراء في موريتانيا...، م، س، ص 161

[17]- يحيى ولد البراء، المجموعة الكبرى ..، م، س، ص 247

[18]- نفس المرجع ص 386

[19]- المرجع السابق(بتصرف)ص 5135 .

[20]- محمد بباه ولد محمد ناصر، المكان في التراث الشعري الموريتاني، منهاج للتناول، ضمن أعمال: الملتقى الدولي حول التراث الثقافي الموريتاني ،المطبعة الوطنية، انواكشوط، 2000، ص 107.

*صحيحة النقل في علوية ايدوعلي وبكرية*محمد قلي[21]، و الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية[22]، و رسالة الروض في أنساب الحوض[23]، و مدونة مؤرخ موريتانيا: المختار ولد حامدن المعروفةبـــ:حياة موريتانيا. كما تتواتر النصوص الشعرية، في هذا الشأن ، مثلا :

إنا بني حسن دلت فصاحتنا : أنّا إلى العرب العرباء ننتسب
إن لم تقم بينات أننا عرب : ففي اللسان بيان أننا عرب

والعجيب هنا أن نخبة الثقافة بهذا البلد لا ترى في طبيعة وحجم هذه المزاعم ما يدعوإلى القول باستحالتها كليا، أو جزئيا متجاهلين، في هذا السياق، أدلة نفي هذه المزاعم. حيث تثبت المصادر أن هذه الصحراء كانت تضج بمجتمع وسلطة البربر حين انطلقت، خلال القرن 11م، جيوش المرابطين من هذه الصحراء جنوبا و شمالا.
نحن،إذن، إزاء وضعأشبه ما يكون بإنكار القبائل الموريتانية لذاتها وهويتها، وذلك من خلالالتنكرلأصولها الزنجية والامازيغية. حيث لا وجود لشيء يثبت انحدارهاالأثيني من أصول عربية.
من الواضح أن الهوس بالنسب العربي يمثل إحدىأوجه استلاب الشخصية الموريتانية، والانفصام بين حقيقة هذه الأناوتصوراتها المثيولوجية عن نفسها. وعليه يمكن القول أن حكاية الأنساب، هنا، لا تعدو إلا أن تكون جزء من الأساطير المؤسسة لكل قبيلة.

3- اغتراب في المعتقد الديني عند الموريتاني

ما يزال المجتمع الموريتاني بحاجة إلى مراجعة وتشخيص لطبيعة إدراكه وتمثله للإسلام. حيث يتبين من تقصي طبيعة المنظور الديني الإسلامي المبكر، إلى جانب التجارب الحديثة للتدين في بقية أقطار العالم الإسلاميأن استبطان الموريتانييناللإسلام في صيغته المالكية ينبني على نهج من التدين المتناقضوالمنافي لجوهر الإسلام في طبيعته الحيوية.
ولكي يتضح ما نقصده، هنا، نشير إلى أنه بالمقارنة مع تدين المحيط الإسلامي لهذا البلد، نستطيع أن نلاحظ أن التدين هناتسوده الرتابة والدروشة والزهد، ويختلف في هواجسه وأولوياته عن التدين لدى محيطنا الإسلامي.
منهنا، إذن، تبرز بعض تجليات التدين المرضي،أو المغلوط التي تربى الناس عليها هنا. من بين ذلك القول إن المسلم الحقيقي هو من يستكفي من نعم الله بالبقاء على قيد الحياة مما يعني أن هناك جهلا واغترابا عما تمليه نصوص الإسلام على المسلم من أجل العمل على أن ينعم بكل طيبات الحياة، واغترابا عن الحقوق التي يوجبها الإسلام على الحاكم اتجاه الرعية.
يضاف إلى ذلك أن المجتمع الموريتاني قد تعود على الربط بين الكثير من وقائع حياته اليومية وبين المعجزات/ الكرامات، إلى حد أن بعض القبائل يطيب لها أن تنسب بعض انتصاراتها الحربية الماضيةإلى المعجزات بدل أن تسندها إلى كسبها الفعلي/ المادي.

4- نماذج من أوجه الاغتراب الثقافي

على المستوى الثقافي نشير إلي أن للاغترابهنا عدة تجليات فالإنسان الموريتاني مفتونا بالقدماء مما جعله يقلدهم في حياتهم ويحاكيهم في قناعاتهم ويقتدي بهم في لغتهم وتفكيرهم، ونزوعه نحو التزي بأزيائهم.. ولم يكن من الغريب، في هذا السياق أن تتجاهل الكتابة النثرية و الشعرية التعبير عن تصورات القوم اتجاه مجالهم الجغرافي، أو السكن، أو المأكل والمشرب، واللباس، والجسد، والزواج، أو الأمراض، والزمن، أو الزي ، والآخر..، وأن يردد الفقهاء حكمتهم التي تتبجح بالقول: كم من حاجة قضيناها بتركها ؟ ، وأن يندفع الزنوج و البربر هنا نحو درجات جديدة من التعريب، تواؤما مع الدفق القومي: الناصري والبعثي الذي غمر البلاد مع بداية ثمانينات القرن العشرين.
ويبدو أن لهذا الواقع الاغترابي– الذي يشكل حجبا يحول دون إدراك الذات لحقيقتها– العديد من منابع التغذية المستديمة، حيث نجد أن مقررات التاريخ في النظام التعليمي الموريتاني- الذي يمثل إحدى أدوات صنع التمثلات وصياغة الذاكرة و الشخصية على المستوى الجمعي– ينبني على العديد من الأطروحات التي تزيف الوعي بالذات، والواقع عموما.

---

[21]- نص يعود إلى القرن 18 الميلادي من تأليف أحد أبرز علماء هذا البلد. يتعلق الأمر هنا بسيدي عبد الله ابن الحاج إبراهيم، يتركز هذا التأليف على تقديم رواية المؤلف حول نسب قبيلتين بهذا البلد.
[22]- يتعلق الأمر هنا بكتاب في أنساب عدد من قبائل هذا البلد. تعود كتابة هذا المؤلف إلى القرن 19م، و هو من تأليف احد ابرز مؤرخي هذا البلد، و هو صالح ابن عبد الوهاب الناصري.
[23]- مؤلف في بعض الأنساب المحلية. يرجح بعض المحققين في المخطوطات بالبلد أنه من تأليف سيدي عبد الله ابن الحاج إبراهيم ، و يعود إلى القرن 19م

هناك، أيضا، نوع من الاعتداد بالذات يصل حد مفارقة الواقع الذي يتميز ببساطة القوة في الصحراء، والدليل على ذلك قول احد شعراء المنطقة :

ونحن ركب من الأشراف منتظم: أجل ذا العصر قدرا دون أدنانا[24]

وسيكون بمستطاع من يستجلي ماضي الثقافة بهذه البلاد أن يرصد بيسر تكدس بعض الإفهامات التي تقطع مع عالم الشهادة وتنفصم عن وقائع الحياة وتعتبرها مجرد مشاهد عارضة، بل أوهاما، ومما يشهد على ذلك قول أحد قادة الرأي بالبلاد مايلي:

ألا إنما الدنيا سراب بقيعة : وهم وأوهام وهام مرامس[25]

5- نماذج من مظاهر الاغتراب السياسي:

تشكل الصحراء بيئة صالحة لتكاثر تمنيات الحصول على الكرامات السياسيةالأمر الذي تدل عليه العديد من مؤشرات الحياة السياسية بالصحراء الشنقيطية/ الموريتانيةمنذ أزمنة قديمة حتى يومنا هذا. حيث يتبين أن ذلك النزوع هو الذي دفع بعبد الله بن ياسين[26]، وناصر الدين[27]،والطالب المصطف[28]ولمرابط سيدي محمود[29]،والشيخ ماء العينين...إلى تصدر المشهد السياسي بالمنطقة في أوقات معينة. ومما يتسق مع هذا التوصيف تفسير لأحد الكتاب يفيد فيه بأن: (القحط والألم لا تداويه إلا السماء، وأن الصحراء لا تنبت إلاالأنبياء ..)[30].

وقد أستمر الأمر على هذا النحو في هذا البلاد إلى يومنا هذا، سوء من حيث غياب تعقل الواقع أو من حيث الحيل التي يدير بها الخاصة وعي العامة،أو من حيث الطابع القبلي للزعامات التي تبرز على الساحة هنا..

ضمن هذا السياق نشير إلى أن الاغتراب السياسي الراهني لمجتمع الدراسة عائد إلى عدة أسباب. ففي عهد الأنظمة العسكرية التي تعاقبت على السلطة هنا، بعد نظام الحكم المدني الذي تسلم حكم البلاد من إدارة الاحتلال الفرنسي، نجد أن تلك السلط قد عملت على التحجير الثقافي و الفكري على هذا المجتمع.

لم يكن من الغريب،إذن، أن يؤدي التسييرالقسري للمجتمع الموريتاني إلى حالة من اللاوعي السياسي. وقد تجلى ذلك في عدة مظاهر نذكر منها هنا إضفاء درجة عالية من القداسة الدينية على من يحكم.

---

[24]- جمال ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مساهمة فيوصف الأساليب،،منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، الطبعة الأولى 2005، ص، 115 .

[25]- المرجع السابق ، ص 161.

[26]- عبد الله بن ياسين من مواليد و وفيات القرن الحادي عشر الميلادي. يعود أصله إلى.قبيلة جزولة بجنوب المغرب، وهو فقيه وداعية اشتهر بعد مرافقته لزعيم قبيلة جدالة المعروف بيحي بن إبراهيم في رحلة عودته من الحج إلى صحراء الملثمين/ موريتانيا حاليا. حيث عمل ابن ياسين على تصويب عقائد الناس هناك ودفعهم إلى تشكيل كيان سياسي إصلاحي بالمنطقة. و قد أفضى تلاقي الجهود الإصلاحية لعبد لله ابن ياسين مع إرادة بعض الزعامات السياسية بالمنطقة إلى ميلاد سلطة المرابطون التي نشأت بصحراء موريتانيا قبل أن ينتقل مركزها الى المغرب الأقصى. و من هنا عرف هذا الرجل بالزعيم الروحي للمرابطين.

[27]- هو أوبك ابن أبهم المعروف بناصر الدين إحدى أبرز شخصيات الجنوب الغربي الموريتاني خلال القرن17م.تميز عن وسطه القبلي، آنذاك، بنزوعه نحو تبني للكشف الصوفي. حيث تضعنا المعطيات المتوفرة هنا أمام رجل تعلق به قومه معتبرين إياه صاحب بركة و خوارق. و من جهته فقد عمل ناصر الدين، بسرعة، على أن تتعدى سلطته المجال الروحي لتشمل ماهو أبعد من ذالك. حيث عمل على استغلال هيْبته الروحية و شخصيته الكاريزمية و مطامحه السياسية لقلب الأوضاع السياسية و الاجتماعية للجنوب الغربي الموريتاني. وقد عرفت تلك المحاولة باسم حركة ناصر الدين.

[28]- لا يتسع المقام لتقديم تعريف، حتى ولو كان موجزا، لهذا العلم لاكنني أشير هنا إلى أن الأمر هنا يتعلق بأحد أقطاب التصوف بالمنطقة الوسطى من موريتانيا. و بعد أن حاز شهرته المستمدة مما نسبإليه من كرامات و صلاح، قصدته العديد من المجموعات و الإفراد بعضها يلتمس البركات و بعضها يطلب معارفه ومنها من يريد حمايته. من هنا ذاع صيته و توسعت مطامحه نحو العمل على تغير موازين القوة السياسية في المنطقة.

[29]- هو سيدي محمود بن المختار بن عبد الله بن حبيب الله، رجل صوفية ذاع صيته باعتباره أحد أبرز الصلحاء والأولياء في هذه البلاد.انطلقت شهرته من منطقة الركيبة بوسط ألأراضي الموريتانية. حيث ذاع صيته، مع بداية القرن 19م، بوصفه شيخا صوفيا تلتمس منه البركات وترجى حمايته ودعواته.ولذلك توافد عليه كثير من الناس من قبائل وجهات شتى. ومع مرور الوقت أخذت هذه الشخصية تجنح إلى الزعامة السياسية بالمنطقة.

[30]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة- بيروت، 1967.

من السمات الأساسية لهذا المجتمع أيضا اغتراب مفهوم الدولة و المواطنة داخل أذهان المواطن هنا، وبالذات خلال مراحل حكم السلط العسكرية التي ما زالت تتعاقب على حكم هذا البلد. ويمكن التدليل على ذلك من خلال قوةالممارسةوالخطاب القبليين مقابل افتقاد ادعاءات السلط العسكرية هنا للدلائل الفعلية على وطنيتها.
وبفعل قوةالتأثير والتلقين والتعميةالتي تقوم بها السلط في موريتانيا اليوم، أصبح المجتمع هنا يضغم نفسه في تضاعيف خطاب السلطة مرددا و مصدقا شعاراتها و مقولاتها.
من المهم هنا أيضا أن نبحث عن ما إذا كانت علل الاغتراب السياسي منحصرة في نظم الحكم هنا أم أنهاتمتد لتشمل بقية القوى السياسية.من أجل ذلك سأعرض هنا بعض المؤشرات التي تدل على أن المعارضة الموريتانية، في حالة انفصال عن الواقع. ففي موريتانيا حاليا/2023 توجد أحزاب سياسية ترفع شعار المعارضة بينما يعتبرها البعض جزء من نظام يحكم قادة ما كان يعرف هنا بالمعارضة من خلال التحويلات البنكية السرية.

خاتمة

في نهاية هذه المقاربة نشير إلى أن هناك ما يثبت ما بدا لنا أنه أعراض اغتراب لدى المجتمع الموريتاني.من ذلك أن صورةالإنسان الموريتاني عن نفسه وظروف عيشه لا تتطابق مع واقعه الفعلي، أي أنه يعيش متحللا و ذاهلا عن حقيقة هذا الواقع. و بفعل ذالك لم يكن من الغريب لنا، في هذا السياق، أن يعيش الموريتاني مترحلا بين الأزمات، لان ذلك المصير بمثابة نتيجة منطقية لتناقضات إدراكه واقعه.
إجمالا نستطيع أن نستخلص من تقصينا للموضوع أن مفعول هذا الاغتراب قد أفضىإلى تشكل وعي يومي ساذج لدى مجتمع الدراسة، وعي يكرس الواقع، ويجعل الحديث عن تغيره دربا من الهذيان..
و سيكون من الجلي أنه لو لا أوهامنا عن (قبح واقعنا) لما كانت الحياة السائدة هناتستحق الحرص عليها و السعي إلى ديمومتها.
نحن،إذن ، إزاء أوضاع اغترابية شتى من بينها أنالسعي و المناضلة في سبيل الحياة الكريمة يعد كفرا بأنعم الله، و دلائل شتى على أن هناك ضعفا في تصور الأغلبية جعلها.تتهرب من تحمل مسؤولياتنا في مواجهة الواقع : استبصارا، وأداء...
وهو أمر طبيعي نظرا لان من يغترب عن شيء يفقد القدرة على التعامل معه.